حوليات آداب عين شمس (عدد خاص ٢٠١٧)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الأنساق الدينية والمعتقدات الثقافية في ديوان الأعشى الكبير

فاطمة صالح محمد جبر *

معيدة بكلية الآداب، قسم اللغة العربية، جامعة عين شمس

المستخلص

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن المرجعية الثقافية للأنساق الدينية في شعر الأعشى، وبيان التمثيل الفكري للمجتمع الجاهلي، وذلك من خلال المعتقدات الثقافية التي تضرب بجذورها في عمق اللاوعي الجمعي للجاهليين، كما يهدف البحث إلى إبراز الموروث الثقافي في شعر من سبقوا الأعشى؛ ليؤكد التراكم الثقافي في المجتمع الجاهلي. ومن تلك الأنساق نسق القصص الدينية كقصة نوح وداوود وسليمان، ونسق القسم الذي يكشف عن المضمون الفكري للقيم الجاهلية، والأنساق الخاصة بالديانة النصرانية في الشعر الجاهلي؛ مثل نسق الراهب والصليب والناقوس وأعياد النصارى.

كما يهتم البحث بالكشف عن المعتقدات الثقافية في الديوان، التي شكلت اللاوعي الجمعي للجاهليين حتى أصبحت جزءًا من ثقافتهم. كما يناقش البحث كيفية توظيف الأعشى لمثل هذه المعتقدات في شعره وشعر من سبقوه، ومن هذه المعتقدات إيمان المجتمع الجاهلي بالجن وارتباطه بالصحراء، واعتقادهم بشياطين الشعراء، وكذلك بعض المعتقدات في حياتهم اليومية مثل تعليق التمائم دفعًا للحسد، وضرب الثور عند امتناع البقر عن ورود الماء.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

لقد عرف الجاهليون الديانات المختلفة التي استوطنت أرض الجزيرة العربية من وثنية ونصرانية ويهودية وحنيفية ومجوسية، وعبادات أخرى متنوعة؛ وذلك لمجاورتهم لكثير من الأمم المتدينة، فتيسّر لهم بالرحلة والتجارة معرفة أديان مجاوريهم، وناهيك لبلاد الشام، وهي الأرض التي بورك فيها لكثرة مَن أرسل لها من النبيين، فنقلوا تعاليم هذه الديانات إلى بلادهم، واعتنقها من اعتقدها منهم.

وقد تقبل المجتمع هذا التنوع في الأديان والعبادات، وتناغمت في محيط اجتماعي متجانس مما يدل على عمق الترابط الثقافي الذي عايشه أصحاب الديانات المختلفة، فقد عبر الشعر الجاهلي عن هذه الأفكار الدينية السائدة في المجتمع الجاهلي، ولكن في أكثره لم يكن تصريحا بالدين والعبادة بقدر ما تضمنته الصور الفنية والمعاني المختلفة، وبعبارة أخرى لم يكن التعبير عن الدين غاية في الشعر الجاهلي، بل كان وسيلة من الوسائل الثقافية التي كانوا يعبرون بها في حياتهم اليومية، وطقوسهم ومعتقداتهم الحياتية، فالشعراء لسان القوم، ولذلك نجد تجليات اللاوعي الجمعي للشعراء في ألفاظ الشعر وتشبيهاته ومعانيه التصويرية، وقد حاولنا في هذا البحث التمييز بين الأنساق الدينية والمعتقدات الثقافية؛ نظرا لأن هناك ديانات سماوية بلغت الجزيرة العربية، وأثرت في فكر المجتمع الجاهلي وأفعاله، كما كان هناك المعتقدات التي تعتبر طريقة تفكير يصطنعها الناس في المجتمع، وتفرضها باعتبارها قوة مؤثرة في حياتهم.

أولًا: الأنساق الدينية في ديوان الأعشى الكبير.

لقد جسّد الأعشى الموروث الديني بصورة فنية شاعت بين شعراء عصره، حتى صار التعبير عن هذه الصور الدينية أنساقًا تعارفت عليها الثقافة الجاهلية، فأوردها الأعشى في شعره متأثرًا بثقافة مجتمعه، وليس معتقدا لهذا الدين أو غيره، وقد حاولت في هذا المبحث إيراد بعض الأنساق الثقافية الخاصة بالأديان الشائعة في هذا العصر.

١-القصص الدينية.

تعتبر القصص الدينية سياقًا ثقافيًا شاع في هذا العصر، وقد عبّر عنها بعض الشعراء بوصفها نسق صياغي؛ وذلك بالإشارة إلى صفة نبي من الأنبياء الذين شاعت أخبارهم في الثقافة الجاهلية، ومن هذه القصص التي وردت في شعر الأعشى قصة سيدنا نوح عليه السلام وارتباطه بالطوفان.

وتعتبر قصة الطوفان من الموروث الديني القديم عند الجاهليين وعند غيرهم من الأمم أيضًا، إذ مفادها أن الإله هو من أوحى لنوح بأن يصنع السفينة لتكون عبرة للناس، وحمل فيها من كل زوجين اثنين لحفظ النسل، وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن هذه القصة في قوله تعالى "فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ" (١).

وقد وظف الأعشى هذا الموروث الثقافي في إشارته لنعمة الله على نوح بعد ما شاب حين أمره أن يصنع الفلك ليعصمه من الطوفان في سياق مدحه لإياس، ودعائه له بخير الجزاء، كما جزي الله نوحًا فيقول الأعشى (٢):

جَزَى الإِلَهُ إِيَاساً خَيْرَ نِعْمَتِهِ كمَا جَزَى المَرْءَ نُوحاً بعدَما شَابَا

فى فلكهِ، إذْ تبدّاها ليصنعها وظلّ يجمعُ ألواحاً وأبوابا

وتردد هذا النسق عند شعراء آخرين لما اختزن في اللاوعي الجمعي عندهم، ومن أمثال هؤلاء الشعراء قول النابغة في سياق مدحه واعتذاره للملك النعمان بن المنذر، واصفًا النعمان بالصدق وعدم الخيانة؛ كما كان سيدنا نوح يُعرف بهذا فقال (٣):

فألفَيْتُ الأمانَةَ لم تَخُنْهَا كذلك كانَ نُوحٌ لا يخونُ

وتردد هذا النسق في شعر أمية بن أبي الصلت فقال [٤]:

جزى اللـهُ الأجلُّ المرءَ نوحاً جزاءَ البرّ ليس لـه كِذابُ.

بما حملتْ سفينتُهُ وأنجتْ غداةَ أتاهمُ الموتُ الْقلابُ.

وقال أيضا [٥]:

سمع اللـه لابن آدم نوح ربّنا ذو الجلال والافضال

حين أوفى بذي الحمامة والنا سُ جميعاً في فلكه كالعيال

ومن الأنساق أيضًا الإشارة إلى داوود، وقد ذكره الأعشى حين نسب إليه نسج الدروع في معرض مدحه الأسود بن المنذر، فقال [٦]:

وَدُرُوعٌ مِنْ نَسج داوُدَ في الحَرْ بِ وسوقٌ يحملنَ فوقَ الجمال.

وقال في مدح هوذة بن على الحفني [٧]:

وَمِــنْ نَسْــج دَاوُدَ مَوْضُونَــةٌ تُســاقُ مَــعَ الحَــيّ عِيرًا فعِيْرًا.

فقد وصف الأعشى الدروع بأنها من نسج داوود ليُعني بذلك جودتها وإحكام سردها، ليدل بذلك على جودة دروع ممدوحة (هوذة).

وقد أكد القرآن الكريم أن الله تعالى علّم داوود نسج الدروع وصناعتها، مثل قوله تعالى: "وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ" [٨]. وقال تعالى "أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" [٩].

ونجد ذلك عند زهير بن أبي سلمى في قوله [١٠]:

وآخَرينَ تَرَى المَاذِيّ عُدّتَهُمْ مِنْ نَسْجِ داودَ أوْ ما أوْرَثَتْ إرَمُ.

ومن أنساق القصص الديني أيضا قصة سيدنا سليمان؛ إذ يُمثل النبي سليمان في أذهان العرب بهالة من التعظيم، فهو الذي يحكم جيوش الجن، ويكلمه الطير، فسُخر له الإنس والجن لخدمته، لكن لم يذكر الأعشى سيدنا سليمان سوي في سياق حديثه عن حصن الأبلق [١١]:

ولا عاديا لمْ يمنع الموتَ مالهُ، وردٌ بتيماءَ اليهوديّ أبلقُ

بناهُ سليمانُ بنُ داودَ حقبة ً لهُ أزَجٌ عَالٍ وَطيٌّ مُوَثَّقُ

فزعم الأعشى أن سليمان بن داوود هو من بنى الحصن، وعند ذكر ياقوت الحموي لحصن الأبلق في معجم البلدان [١٢] قال إن هذا زعم، أي أنه عند ياقوت زعمٌ لم يتحقق، ومن المحتمل أن يكون هذا القول من المسموع في الثقافة الجاهلية وحكاه الأعشى على أساس هذا.

وكذلك نجد الإشارة إلى سيدنا سليمان في قول النابغة [١٣]:

ولا أرَى فاعِلاً في النّاس يُشبهُهُ ولا أحاشِي مِن الأقوَام من أحَدِ.

إلا سُليمانَ إذ قالَ الإلهُ لهُ قُمْ في البريَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ.

وخيّس الجنَّ إنّي قد أذِنْتُ لهمْ يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفّاح والعَمَدِ.

ويقول ورقة بن نوفل [١٤]:

لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ وَالْخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا.

وَلا سُلَيْمَانُ إِذْ دَانَ الشُّعُوبُ لَهُ الإِنْسُ وَالجِنُّ تَجْرِي بَيْنَهَا الْبُرُدُ.

٢- نسق القسم.

يُعد القسم من الجوانب المهمة في الحياة الدينية في الثقافة الجاهلية، ويكشف لنا القسم في الشعر الجاهلي المضمون الفكري الذي حاول الشعراء تثبيته من خلال التمسك الصارم بالقيم الجاهلية، فالغرض من القسم هو توكيد الكلام، مما يعني القوة المستفادة من التوكيد، ومعنى قوة المقسم به في الثقافة الموجودة في المجتمع، وقد تنوع المقسم به في الثقافة الجاهلية تبعا لتنوع الأديان والعبادات والمعتقدات في الجاهلية، وقد انعكس هذا التنوع الديني للثقافة الجاهلية في شعر الأعشى من خلال:

أ- القسم بالله، مما يؤكد عظمة الله في ثقافتهم واعتقادهم به.

فيقسم الأعشى بالله في هجاء علقمة بقوله (١٥):

يُقْسِمُ بِاللهِ لَئِنْ جَاءَهُ عنّي أذىً منْ سامعٍ خابرِ
ليجعلنّي سبّةً بعدها جدّعتَ، يا علقمُ، من ناذرِ

لقد أضفى الشاعر على قسمه مخافة وتوكيدا من خلال لفظ الجلالة؛ إذ أراد تسريب الخوف إلى نفس خصمه؛ مما يُعرب عن الوعي الثقافي لدى الأعشى وخصمه لقيمة هذا القسم.

وقد تردد نسق القسم بالله في شعر امرؤ القيس من خلال قوله (١٦):

حَلَفتُ لَها باللّهِ حِلفَةَ فاجِرٍ لَناموا فَما إِن مِن حَديثٍ وَلا صالِ

وقال (١٧):

تَاللهِ لا يذهَبُ شَيْخِي باطلا يا خير شيخٍ حسباً ونائلاً

وقال على لسان محبوبته (١٨):

فَقَالَتْ يَمِيْنَ اللهِ مَا لَكَ حِيْلَةٌ وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ الغَوَايَةَ تَنْجَلِي

ومن الشعر المنسوب إلى عبيد نجد (١٩):

حَلَفتُ بِاللّهِ إِنَّ اللّهَ ذو نِعَمٍ لِمَن يَشاءُ وَذو عَفوٍ وَتَصفاحِ

وقال زهير (٢٠):

وقالت أمُّ كعب لا تَزُرْنا فلا واللهِ ما لك من مَزارِ

وقال النابغة (٢١):

واللّه واللّه لِنعمَ الفتى الاعرجُ لا النكسُ ولا الخامل

ب- القسم ببيت الله

وقد أقسم العرب ببيت الله إيمانا منهم بأن هذا البيت قد اكتسب صفة القداسة من قداسة رب البيت، فالأعشى أقسم ببيت الله في قوله (٢٢):

لَسْنَا بِعِيرٍ، وَبَيْتِ اللهِ، مَائِرَةٍ، إلا عَلَيْها دُرُوعُ القَوْمِ، وَالزَّغَفُ

وقوله(٢٣):

كَذَبُوا وَبَيتِ اللـهِ، يُفعَلُ ذلِكُمْ حتى يُوَازِيَ حَزْرَماً كِنْدِيرُ

كما أقسم الأعشى بما يدل على بيت الله في قوله(٢٤):

إني لَعَمْرُ الذي خَطّتْ مَنَاسِمُها، تخدي وسيقَ إليهِ الباقرِ الغيلُ

فهو يقسم بالبيت الحرام الذي تهوى إليه الإبل من كل صوب تشق التراب بخفها، وبما يساق إليه من البقر الكثير لتقديمها قرابين لهذا البيت.

كما يدلّ قول الأعشى في قسمه بالذي تحج إليه قريش على بيت الله، إذ الحج لا يكون إلا إلى بيت الله في مكة فيقول (٢٥):

لعمرُ الذي حجتْ قريشٌ قطينهُ، لقد كدتهمْ كيدَ امرئٍ غيرِ مسندِ

وقد تردد هذا النسق وهو القسم ببيت الله في أشعار من سبقوا الأعشى ومن عاصره؛ لأنها نتاج البيئة الجاهلية وثقافتها التي اعتادوا عليها في حياتهم ونطق بها الشعراء.

فيقول عمرو بن براقة (٢٦):

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها، مراغمة مادام السيف قائم

ويقول راشد بن شهاب اليشكري (٢٧):

فلا تحسبنا كالعمور وجمعنا فنحن وبيت الله أدنى إلى عمرو

ويقول زهير (٢٨):

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

ج_ القسم بما يدل على الله، وذلك من خلال نسق المضاف والمضاف إلية بإضافة كلمة رب إلى ما يدل عليه، وذلك يتضح من خلال قول الاعشى (٢٩):

فَإنّي وَرَبِّ السّاجِدِينَ عَشِيّة وَمَا صَكّ ناقُوسَ النّصَارَى أبيلُهَا

وكذلك قوله (٣٠):

حلقتُ بربّ الرّاقصاتِ إلى منىً إذا مَحْرَمٌ جَاوَزْتُهُ بَعْدَ مَخرَمِ

وتردد هذا النسق في الثقافة الجاهلية من خلال قول أوس بن حجر (٣١) :

حلفتُ بربِّ الدّامياتِ نحورُها وما ضمّ أجمادُ اللُّبين وكبكبُ

ويقول بشر بن أبي خازم أيضًا (٣٢):

حلفتُ بربِّ الدّامياتِ نحورُها وَما ضَمَّ أجوازُ الجواءِ وَمِذنَبُ.

كما أورد الأعشى بعض الأنساق الثقافية للديانة النصرانية في شعره إلى بعض المفاهيم النصرانية في شعره، مثل نسق الراهب أو الرهبان، التي تعارفت عليه الثقافة الجاهلية من خلال اختلاط العرب بالنصارى، والرهبان هم من يعتكفون في الصوامع وفي الأديرة النائية يعبدون الله.

وقد وظف الأعشى هذا النسق من خلال قسمه براهب اللّجّ في قوله (٣٣):

فَإنّي وَثَوبي راهِبِ اللّجّ وَالّتي بَناها قُصَيٌّ وَالمُضاضُ بنُ جُرهَمِ

فاللج غدير عند دير هند ابنة النعمان، وكانت ترهبت فيه حين غضب كسرى على أبيها النعمان، فالأعشى هنا يُقسم بثوبي راهب اللج، والثياب يُكنى به عن الشخص نفسه مثل قوله تعالى" وَثِيَابَكَ فَطَهّرْ" (٣٤)، وهو هنا يُقسم براهب هذا الدير، مما يعني معرفته بفكرة الرهبان، وقيمة الراهب في الثقافة الدينية للنصرانية في المجتمع الجاهلي.

وتردد هذا النسق عند امرئ القيس في قوله (٣٥):

تُضيءُ الظّلامَ بالعِشاءِ كأنّها مَنارَةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ

فهو يصف جمال صاحبته ويشبهها بمنارة الراهب، وعندما يتحدث عن ضوء البرق ولمعانه يشبهه بمصابيح الراهب في قوله [٣٦]:

يُضيء سناهُ أو مصابيحَ راهبٍ أهانَ السَّليطَ في الذُبَال المُفَتَّلِ

وكذلك في قول مزرد بن ضرار الذبياني [٣٧]:

كأن شعاع الشمس في حَجَراتها مصابيحُ رهبان زَهَتها القناديلُ

٣-نسق أعياد النصارى.

لقد وظف الأعشى الثقافة الدينية أيضًا من خلال ذكر الأعياد الخاصة بالنصارى، فقد ذكر عيد الفصح، "وكان النصارى في الجاهلية يحتفلون به، فيوقدون المشاعل، ويعمرون القناديل، ويضيئون الكنائس بالمسارح ويقصدونها للاحتفال بها حتى قيل للقنديل الذي يُعمر في هذا اليوم" [٣٨].

قال الأعشى [٣٩]:

بهِمْ تَقَرّبَ يَوْمَ الفِصْحِ ضَاحِيَةً يَرْجُو الإلَهَ بِمَا سَدّى وَما صَنَعَا

وأشار أيضًا إلى عيد هنزمن في قوله [٤٠]:

وآسٌ وَخِيرِيٌّ ومَرْوٌ وسَمْسَقٌ إذا كان هِنْزَمْنٌ، ورُحْتُ مُخَشَّما

وتردد نسق أعياد النصارى في شعر عدى بن زيد من خلال إشارته لعيد الفصح [٤١]:

بكروا علي بسحرةٍ فصبحتهم بإناء ذي كرم كقعب الحالب

بزجاجةٍ ملء اليدين كأنها قنديل فصح في كنيسة راهب

كما ذكر أوس بن حجر في قوله [٤٢]:

عَلَيْهِ كمِصْباحِ العَزيزِ يَشُبّهُ لِفِصْحٍ وَيَحشوه الذبالَ المُفَتَّلا

٤- نسق النواقيس.

يعتبر الناقوس من العلامات الفارقة التي ميزت معابد النصارى عن معابد اليهود، والناقوس هو الذي يُنصب فوق سطوح الكنائس؛ للإعلان عن أوقات العبادات ولإداء الفروض الدينية، وهو عند الجاهليين خشبة طويلة يُقرع عليها بخشبة أخرى قصيرة [٤٣].

وقد ذُكر الناقوس في شعر الاعشى في قوله [٤٤]:

فَإنّي وَرَبِّ السّاجِدِينَ عَشِيّة وَمَا صَكّ ناقُوسَ النّصَارَى أبيلُهَا

وكذلك في سياق حديثه عن الخمر حيث كان يشربها مع ندمائه الصلاب قبل مطلع الشمس على قرع النواقيس فيقول [٤٥]:

وكأسٍ كَعَين الدّيكِ باكَرْتُ حدّها بفتيان صدقٍ والنواقيسُ تضربُ

وقال المتلمس في هذا النسق أيضًا [٤٦]:

حَنّت قَلوصِي بِها وَالليلُ مُطْرِقٌ بَعدَ الهُدُوّ وَشاقَتها النَواقيسُ

وقول المرقش الأكبر[٤٧]:

وتَسْمعُ تَرْقاءً منَ البُومِ حَولَنَا كما ضُربتْ بعدَ الهُدُوءِ النَّوَاقِسُ

٥- نسق الصليب.

إن الصليب من المصطلحات المعروفة عند النصارى لاعتقادهم بصلب المسيح_ عليه السلام_ حتى صار رمزًا للنصرانية، وصاروا يعلقونه على أعناقهم تبركا وتيمنا به، وقد أشار الأعشى إلى نسق الصليب في سياق مدحه لقيس بن معد يكرب، فبرغم ما اتصف به من قوة وكرم ووفاء فهو أيضًا تقي، فليس الراهب المعتكف أمام صليبه دائبًا على صلاته متضرعًا على الله بأعظم منه تقى في الحساب، إذ يقول الأعشى [٤٨]:

وَمَا أيْبُليٌّ عَلى هَيْكَلٍ بَنَاهُ وَصَلّبَ فِيهِ وَصَارَا

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ المَلِيـ ـكِ طَوْراً سُجوداً وَطَوْراً جُؤارَا

بِأعْظَمَ مِنْهُ تُقىً في الحِسَابِ إذا النّسَمَاتُ نَفَضْنَ الغُبَارَا

فهنا يفاضل الشاعر بين الممدوح والراهب المتعبد أمام صليبه، فاتخذ نسق الصليب وسيلة ثقافية لإبراز تلك الصورة، والتعبير عن تقى الممدوح.

ونجد مثل هذا النسق في قول النابغة [٤٩]:

ظَلّتْ أقاطيعُ أنعامٍ مُؤبَّلة لدى صَليبٍ، على الزّوْراءِ، منصوبِ

وعند عدي بن زيد في قوله [٥٠]:

سَـعَى الأعْـدَاءُ لاَ يَـألُونَ شَـرًّا عَـلـيَّ وَرَبِّ مَكّـةَ والصَّلِيـبِ

وبهذا يمكننا القول إن الأعشى قد عبر من خلال ألفاظه وصوره المختلفة عما ساد المجتمع الجاهلي من ديانات وعبادات متنوعة.

ثانيًا: <u>المعتقدات الثقافية في ديوان الأعشى الكبير</u>.

إن المعتقدات هي الأشياء التي يؤمن الانسان الجاهلي بصحتها، وتؤثر في حياته بشكل كبير؛ ترسخت في اللاوعي الجمعي للجاهليين، حتى أصبحت جزءا من ثقافتهم، فكان" بعضها يجرى مجرى الديانات، وبعضها يجري مجرى العادات، وبعضها يجري مجرى الخرافات، وقد هيمنت وسيطرت على عقليتهم، ولاسيما الأمور التي كانت تتصل بحياتهم [٥١]، ولأن الشعر الجاهلي ليس تعبيرا فرديا كان هو المرآة التي تعكس تلك الثقافة، ولذلك نجد الأعشى قد وظف تلك المعتقدات في شعره، وكان لهذه المعتقدات صداها في أشعار من سبقوه ليؤكد التراكم الثقافي لهذه المعتقدات في الشعر الجاهلي، ومن تلك المعتقدات:

١- الجن

لقد شكل الجن عند الجاهليين حيزا كبيرا في حياتهم، فاعتقدوا أن للجن عالما يتألف من عشائر وقبائل، وأنهم يعيشون في الأماكن المقفرة والمنازل المهجورة. وقد ارتبط سياق الحديث عن الجن عند الأعشى وغيره من شعراء عصره بأنساق عدة من خلال ارتباط الجن بالصحراء، باعتبار الصحراء مساكن الجن دائما، كما اعتقدوا أن الجن تعزف في المفاوز بالليل، والعزيف هو صوت الجن عندهم، وفي ذلك يقول الأعشى [٥٢]:

ويهماءَ تعزفُ جنّانها مناهلها آجناتٌ سدمْ

والجن تجتمع في الديار البائدة تصيح وتعزف في قول الأعشى [٥٣]:

أوَلَمْ تَرَيْ حِجْراً وَأَنْـتِ حكيمة ٌ ولما بها

إنّ الثّعَالِبَ بالضّحَى يلعبنَ في محرابها
والجنْ تعزفُ حوله كَالحُبْش في مِحْرَابهَا

فقد ربط الأعشى عزيف الجن بالأحباش في محرابهم، ولعله سمعهم في أسفاره وتنقلاته لبيئتهم، فقد ربط في هذه الصورة بين تخيله لعزيف الجن المرتبط باللاوعي الجمعي لثقافته، وبين صوت الأحباش في محرابها. ويقول أيضًا [٥٤]:

وبلدةٍ مثل ظهرِ التُرس موحشةٍ للجنّ بالليْلِ في حَافَاتِهَا زَجَلُ

فقد شبه الأعشى الصحراء بظهر الدرع في انبساطها ليدل على إقفارها، ودائما ما يصحب هذا الخلاء عزيف الجن في تصوره.

ويقول زهير في هذا النسق [٥٥]:

وبلدة لا ترام خائفة زوراء مغبّرة جوانبها

تسمع للجنّ عازفين بها تصيح من رهبة ثعالبها

ويقول طرفة بن العبد [٥٦]:

ورَكوبٍ تعزفُ الجنُّ قبلَ هذا الجيلِ من عهدٍ أبدْ

كما يقول بشر بن أبي خازم [٥٧]:

وخَرْقٍ تَعْزِفُ الجِنَّانُ فيهِ فَيافِيهِ يخرّ بها السَّهامُ

وقد اعتقد الجاهليون أن هناك مردة من الجن توكل إليها حراسة اللؤلؤ في البحر، وقد ردد الأعشى هذا المعتقد في شعره إذ يقول [٥٨]:

وَمَارِدٌ مِنْ غُوَاةِ الجنّ يَحْرُسُها ذو نِيقَةٍ مُسْتَعِدٌّ دُونَها، تَرَقَا

فقد وظف الأعشى اعتقاد الثقافة الجاهلية بأن الجن يتفاوتون في الحجم والشكل؛ فمنهم العامة ومنهم عتاة الجن الذي يتكلفون بالمهام الصعبة وذلك من خلال قوله "غواة الجن"

كما ورد الحديث عن أصناف من الجن، مثل الغيلان والسعالى، "وقد ذكروا أن الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار، ويتلون في ضروب الصور والثياب، ذكرا كان أو أنثى" [٥٩]، أما السعلاة فهي من أنواع الجن التي تتماثل مع الغيلان، وهي من نساء الجن، تَتغول لتفتن المسافرين، وقد شبه الشاعر الجاهلي المرأة بالسعلاة، فالمرأة" إذا كانت حديدة الطرف والذهن، سريعة الحركة، ممشوقة ممحصة، سميت سعلاة" [٦٠]، لذلك وصف الأعشى السبايا من النساء كالسعالي في الأسر من أثر الذلة في قوله [٦١]:

وَشُيُوخ حَرْبَى بِشَطّيْ أريكٍ ونساءٍ كأنّهنّ السّعالي

وتبدو السعالي بصورة مماثلة، في تصوير لبيد للسائلات والمحتاجات بصورة السعالي الجياع، وذلك في قوله [٦٢]:

لِيَبْكِ على النّعْمان شَرْبٌ وقَيْنَة وَمُخْتبطاتٌ السَعالي أرامِلُ

وفي سياق التشبيه بالجن واعتقاد المجتمع الجاهلي بقوة الجن، ظنوا أن الناقة التي تدمن السير طوال الليل، وتصبح بعد هذا الجهد المتصل الشاق نشيطة، كأن بها مسّا من الجن، هو الذي يعطيها هذا النشاط، إذ يقول الأعشى في ذلك (٦٣):

وَتُصْبِحُ عَنْ غِبِّ السُّرَى وكأنّمَا ألَمَّ بهَا مِنْ طَائِفِ الجِنِّ أوْلَقُ

٢- شياطين الشعراء.

ترتبط فكرة شياطين الشعراء بما اعتقده العرب في أمور الجن أيضا؛ إذ يعتقدون بالقدرة الخارقة للجن سواء في الخير أو في الشر، ومن مظاهر الخير في الجن عندهم هو ما اعتقده العرب أن لكل شاعر شيطان؛ فالجن تنفع الناس وتقدم لهم يد العون لإلهامهم الجيد من الشعر، "فهبيد" اسم شيطان عبيد "الافظ بن لاحظ" شيطان امرئ القيس و "حاطب " شيطان النابغة، و"مسحل" شيطان الأعشى (٦٤)، ومن الملاحظ أن العرب لم يطلقوا تلك الأسماء جزافا؛ إذ الجرس الصوتي له ايقاع خاص، يعمل علي تأكيد صورة الجن التي استقرت في أذهان الناس في المجتمع الجاهلي، ونجد العلاقة بين مسحل والأعشى ليست مجرد أبيات الشعر، إنما تعبر أيضًا عن علاقة عاطفية بينهما، حين يصفه الأعشى بأنه خليله في قوله(٦٥):

دَعَوْتُ خليلي مِسْحلاً، ودَعَوا لَهُ جُـهنّام جَدْعاً للهجِين المُذَمَّم

كما ورد هذا النسق عند حسان بن ثابت في قوله (٦٦):

وَلِي صاحِبٌ مِنْ بني الشَّيْصَبَانِ فطوراً أقولُ وَطَوْرَاً هُوَهْ

فالشَّيْصَبان: قبيلة من الجن.

إذن يمكننا القول بأن الاعتقاد بشياطين الشعراء ظاهرة ثقافية سادت في المجتمع الجاهلي، ودليل ذلك قول الله تعالى "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ " وقوله "وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ " (٦٧) لينفي بذلك عن رسوله الكريم قول الجن لهذا القرآن، لما عُرف في ثقافتهم من ارتباط الجن والشياطين للشعراء والكهان.

٣- التشاؤم والتطير:

ارتبط هذا المعتقد ارتباطاً مباشراً بمخاوف الإنسان الجاهلي من المجهول، وتوجّسه من المفاجآت، وترقبه لحلول المصائب والفواجع، والأحزان والمكاره، وتنزّل الأقدار التي يتمنّى المرءُ خلافها.

والتطيّر مأخوذ من الطِيرة بفتح الياء وتسكينها أحياناً، والمقصود به التشاؤم من الأشياء، كما قال ابن منظور في لسان العرب: " والطيرة بكسر ففتح والطيرة بسكون الياء ما يتشاءم به من الفأل الردي." (٦٨)، فكان العربي إذا أراد السفر قصد أوكار الطير فهيَّجها، فإن ذهبت عن يمينه تفاءل واستبشر خيراً ثم مضى في سفره، وإن ذهبت عن شماله تشاءم، وردّه ذلك عن إمضاء أمره، وقال الجاحظ: "وأصل التطير من الطير إذا مرَّ بارحًا "ميامنًا" وسانحًا "مياسرًا" أو رآه يتفلى وينتف؛ حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال. فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كل شيء(٦٩)".

ولقد أشار القرآن الكريم مرارًا إلى هذه الظاهرة مما يدل على تمكنها من نفوسه الجاهليين، في مثل قوله تعالى" :إنا تطيرنا بكم" (٧٠)، كما نهى الرسول الكريم عنها في

قوله مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ "، مما يؤيد صلة هذه الظاهرة بعالم الغيبيات والقوى الخفية التي كانت تتحكم بمصائر الناس، وكانوا ينسبون كل مكروه إليها. وأكثر ما كانوا يتطيرون به الغراب، فيستحضر الشاعر الجاهلي نسق الغراب في التعبير عن الشؤم، ولعل ذلك عائد إلى اسمه المشتق من الغربة والاغتراب، وقد ارتبط ذكره في الشعر الجاهلي بالبين والفراق وذلك؛ لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنُّجعة، وقع في مرابض بيوتهم يلتمس ويتقمم، فيتشاءمون به ويتطيرون منه؛ إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا، فسموه غراب البين" (٧١).

وقد عبر الأعشي عن ثقافته بهذا النسق في قوله (٧٢):

ما تَعيفُ اليَومَ في الطيرِ الرَوَح مِن غُرابِ البَين أو تَيسٍ بَرَح

وقوله معبرا عن نعيق الغراب (٧٣):

إنّي أخافُ الصُرمَ مِن ها أو شَحيجَ غُرابها

وقد أشار شعراء الجاهلية الي شؤم الغراب، وربطه بالفراق مثل: قول عدي (٧٤):

دعا صُرَدٌ يوماً على عودِ شَوحَطٍ وصاحَ بذاتِ البين منها غرابها

وقول عنترة يرثي صديقه مالك بن زهير (٧٥):

ألا يا غرابَ البين في الطَّيران أعرني جناحاً قد عدمتُ بناني

وذكر علقمة الفحل ارتباط الغراب بالشؤم في قوله (٧٦):

ومَن تَعرَّض لِلغربان يَزجُرُها على سَلامَتهِ لابُدَّ مَشؤومُ

وقد استخدم (لابد) لتأكيد التشاؤم المرافق للغراب في الثقافة الجاهلية.

كما عبر عن هذا النسق النابغة في قوله (٧٧):

زَعَمَ الغرابُ أنَّ رِحْلَتَنَا غَداً وبذاك خَبَّرَنا الغُدافُ الأسْوَدُ

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً بهِ إنّ كانَ تَفريقُ الأحبّةِ في غَدِ

ولم يأتِ نسق الغراب في سياق الشؤم والفراق فقط في الثقافة الجاهلية، إنما ذكر في سياقات أخرى، مثل ارتباطه بالشباب؛ إذ يأتي ذكره للتعبير عن استحالة وقوع الأمر، فالغراب لا يشيب أبدًا فلونه أسود، والشيب معروف باللون الأبيض، والشيب عيب يكرهه العرب؛ لأنه ينذر باقتراب الموت. وقد وظف الأعشى نسق الغراب في سياق الشيب والشباب في قوله (٧٨):

وَإذْ لِمّتي كَجَنَاحِ الغُدَافِ تَرْنُو الكَعَابُ لإعْجَابهَا

فشبه الأعشى لمته بجناح الغراب الأسود، وأعجبت به الحسان، فبرغم ما للغراب من مرجعية تشاؤمية، وظفه الأعشى في سياق يدعو للحسن.

وجاء نسق الغراب في سياق الشيب في قول المرقش (٧٩):

إنْ يُظْعِنِ الشّيْبُ الشّبابَ فقد تُرَى لهُ لِمّةٌ لَمْ يُرْمَ عَنْها غُرَابُهَا

٤-ضرب الثور لامتناع البقرة عن الورود.

يعتبر هذا المعتقد من آثار العقائد الجاهلية في الجن، وقد اتُخذت مثلًا لمن ينزل عليه مكروه في سبيل إخافة غيره، فهم يعتقدون أن الشيطان يركب قرني الثور، ولذلك يتقدم

الثور بشرب الماء؛ لأنه لا يخشى من الجن، والشيطان أخبث أنواع الجن وأذكاها، فتخافه الجن وتفتح المجال للبقر في ورود الماء [٨٠].

وقد وظف الاعشى هذا المعتقد في شعره؛ إذ يقول [٨١]:

لَكَالثَّوْرِ والجِنّيُّ يَضْرِب ظَهْرَه وَمَا ذَنْبُه أنْ عافَتِ الماءَ مَشْربا؟

وما ذنبهُ أنْ عافتِ الماءَ باقرٌ وما إنْ تعافُ الماء إلا ليضربا

وقال النابغة [٨٢]:

يقول راكبها الجنيّ هذا لكُنّ ولحم الشاة محجور

وقال الشاعر [٨٣]:

إنّي وقتْلي سُلَيْكاً ثُمَّ أعْقِلَهُ كالثورِ يُضْرَبُ لَمَّا عافَتِ البَقَرُ

٥- تعليق التمائم دفعًا للحسد.

إن الجاهليين يعتقدون بأثر العين وخطرها، فتفننوا في ابتداع وسائل الوقاية منها والتغلب عليها، ومن تلك الوسائل استعمالهم التمائم، وهي عبارة عن علائق تعلق في عنق الإنسان، ظنا منهم أنها تجلب الخير، وتزيل أثر الحسد، وقد ورد في شعر الأعشى صدى لهذا المعتقد في قوله [٨٤]:

تنوطُ التّميمَ وتأبى الغبو قَ مِنْ سِنَةِ النّوْمِ إلاّ نَهَارَا

وقد ورد هذا المعتقد أيضا عند امرئ القيس [٨٥]:

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

ويقول سلمة بن الخرشب [٨٦]:

تُعَوَّدُ بالرُّقى من غير خَبْلٍ وتُعْقَد في قَلائدها التَّمِيمُ

وبهذا يمكننا القول إن الأعشى لم يستطع صمّ أذنيه عن أفكار وعقائد بدأت تجوب الجزيرة العربية.

Abstract

Religious patterns and Cultural Beliefs in "Divan Al-A'sha Al-Kabir"

By Fatma Saleh Mohammed Gabr

This research aims to reveal the cultural reference of religious patterns in A'sha`s poetry and showing the intellectual reflection of the pre-Islamic community, Through the Cultural beliefs that are deeply rooted in the collective unconscious of pre-Islamic people. Also this research shows the Cultural heritage in the poetry of the predecessors of A'sha to assert the cultural accumulation in the pre-Islamic society. Among these patterns, there are the Religious stories such as the story of Noah, David and Suleiman, the Oath pattern which reveal the Intellectual content of pre-Islamic values, and Special layout of Christian religion In pre-Islamic poetry, like Monk, cross, bell pattern and Christian Feasts.

The research as well as shed light on cultural beliefs in the "Divan", Which formed the collective unconscious of pre-Islamic people until it became part of their culture. Also the research discusses how A'sha employed such beliefs in his poetry and the poetry of his predecessors, such as pre-Islamic people Belief in ghosts and its association with desert, also they beliefs in the devils of poets as well as some beliefs in their daily lives such as wearing amulets to avoid envy, and hitting the bull when Cows refuses to drink water.

الهوامش

(١) سورة المؤمنون، آية ٢٧.

(٢) ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، د.ت، ص ٣٦٥.

(٣) محمد فوزي حمزة، دواوين الشعراء العشرة، ديوان النابغة، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب ٢٠١٣، ص ٤٢٩.

(٤) ديوان أمية بن ابي الصلت، تحقيق سجيع جميل، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٣.

(٥) نفسه، ص ١٠٧.

(٦) ديوان الأعشى الكبير، ص ١١.

(٧) نفسه، ص ٩٩

(٨) سورة الأنبياء، آية ٨٠.

(٩) سورة سبأ، آية ١١.

(١٠) دواوين الشعراء العشرة، ديوان زهير، ص ١١٠.

(١١) ديوان الأعشى الكبير، ص ٢١٧.

(١٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد ١، دار صادر بيروت، ١٩٧٧، ص ٧٦.

(١٣) دواوين الشعراء العشرة، ديوان النابغة، ص ٤٠١.

(١٤) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ٢، شرح وتصحيح محمد بهجة الأثري، دار الكتاب المصري، القاهرة، د. ت، ص ٢٧٢.

(١٥) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٤٥.

(١٦) دواوين الشعراء العشرة، ديوان امرؤ القيس، ص ٣٠.

(١٧) نفسه، ص ٣٢.

(١٨) نفسه، ص ٣٣.

(١٩) نفسه، ديوان عبيد، ص ٤٤١.

(٢٠) نفسه، ديوان زهير، ص ٩٤.

(٢١) نفسه، ديوان النابغة، ص ٤١٩.

(٢٢) ديوان الأعشى الكبير، ص ٣٠٩.

(٢٣) نفسه، ص ٣٠٥.

(٢٤) نفسه، ص٦٣.

(٢٥) نفسه، ص١٩١.

(٢٦) شريف راغب علاونة، عمرو بن براقه الهمداني، سيرته وشعره، ط١، دار المناهج للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص ١١٢.

(٢٧) المفضليات ص ٣١١

(٢٨) دواوين الشعراء العشرة، زهير بن أبي سلمى ، ص ١٠٦.

(٢٩) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٧٧.

(٣٠) نفسه، ص ١٢٣.

(٣١) ديوان اوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت، ١٩٨٠، ص ٧.

(٣٢) ديوان بشر بن ابي خازم الأسدي، شرح مجيد طراد، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤.

(٣٣) ديوان الأعشى الكبير ، ص ١٢٥.

(٣٤) سورة المدثر، آية ٤.

(٣٥) دواوين الشعراء العشرة، ديوان امرؤ القيس ، ص٣٤.

(٣٦) نفسه ، ص ٣٥.

(٣٧) ديوان مرزد بن ضرار الغطفان، تحقيق خليل إبراهيم، ط ١، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٢، ص ٤٤.

(٣٨) انظر جواد على، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ط ٢، جامعة بغداد، ١٩٩٣، ص ٦٦٠.

(٣٩) ديوان الأعشى الكبير، ص ١١١.

(٤٠) نفسه، ص ٢٩٣.

(٤١) ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٥، ص ١١٧.

(٤٢) ديوان أوس بن حجر، ص ٨٤.

(٤٣) انظر جواد على، المفصل في تاريخ العرب، ج ٦ ، ص ٦٥٨.

(٤٤) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٧٧.
(٤٥) نفسه، ص ٢٠٣.
(٤٦) ديوان المتلمس الضبعي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر،١٩٧٠، ص٨٢.
(٤٧) المرقش الأكبر، المفضليات، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط ٦، دار المعارف، د. ت، ص ٢٢٥.
(٤٨) ديوان الأعشى الكبير ، ص ٥٣.
(٤٩) دواوين الشعراء العشرة، ديوان النابغة ، ص٣٩٦.
(٥٠) ديوان عدي بن زيد، ص ٣٨.
(٥١) جواد على، المفصل في تاريخ العرب،ج٦، ص٧٥٣
(٥٢) ديوان الأعشى الكبير، ص٣٧.
(٥٣) نفسه، ص ٢٥١.
(٥٤) نفسه، ص ٥٩.
(٥٥) دواوين الشعراء العشرة، ديوان زهير، ص ٨٤.
(٥٦) نفسه، ديوان طرفة، ص ٥٨.
(٥٧) ديوان بشر بن أبي خازم، ص ١٢٦.
(٥٨) ديوان الأعشى الكبير، ص ٣٦٧.
(٥٩) جواد علي، المفصل، ج٦، ص٧٢٨
(٦٠) الجاحظ، الحيوان، ج٦، تحقيق عبدالسلام هارون، ط ٢، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧، ص١٦٠.
(٦١) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٣.
(٦٢) دواوين الشعراء العشرة، ديوان لبيد، ص ١٤٨.
(٦٣) ديوان الأعشى الكبير ، ص ٢٢١.
(٦٤) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق علي محمد البخاري، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د. ت، ص٤٧-٥٢.
(٦٥) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٢٥.
(٦٦) ديوان حسان بن ثابت، شرحه عبدأ مهنّا، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٥٢.
(٦٧) سورة الحاقة، آية ٤١-٤٢.
(٦٨) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، مادة طير.
(٦٩) الحيوان، ج٣، ص ٤٣٨.
(٧٠) سورة يس، آية ١٨.
(٧١) الحيوان، ج٢، ص ٣١٨.
(٧٢) ديوان الأعشى الكبير، ص ٢٣٧.
(٧٣) نفسه، ص ٢٥٣.
(٧٤) ديوان عدي، ص ١٩٥.

(٧٥) دواوين الشعراء العشرة، ديوان عنترة، ص ٢٥٨.
(٧٦) ديوان علقمة الفحل، شرحه نسيب مكارم، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ص ٥٦.
(٧٧) دواوين الشعراء العشرة، ديوان النابغة، ص ٤٠٢.
(٧٨) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٧١.
(٧٩) المفضليات، ص ٢٣٦
(٨٠) المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، ص ٧١٥.
(٨١) ديوان الأعشى الكبير، ص ١١٥.
(٨٢) دواوين الشعراء العشرة، ديوان النابغة، ص ٤١٢.
(٨٣) بلوغ الأرب/٢، ص ٣٠٣.
(٨٤) ديوان الأعشى الكبير، ص ٤٩.
(٨٥) ديوان امرئ القيس، ضبط مصطفى عبدالشافي، ط ٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ١١٣.
(٨٦) لسان العرب، مادة تمم.